نصوص روائية

فرس العائلة

محمود شقير

للبرّيّة أعرافها التي ابتدعها أبناء بسطاء. عبد الله هو أحد هؤلاء الأبناء. وهو لم يعد راضيًا عن استمرار حياته في البرّيّة. فالريح التي تقبض على الغيوم من أذيالها جالبة معها المطر، لم تعد تحضر إلا لتعيث خرابًا في مضارب العشيرة، والمطر منقطع عن البرّيّة أو هو شحيح في أحسن الأحوال. والأغنام جفّت ضروعها، وسبل العيش أصبحت أكثر صعوبة، وعسكر الانكليز لا يغيبون عن العشيرة حتى يظهروا في أفقها من جديد.

لذلك، اتخذ عبد الله بعد طول تفكير قرارًا بالرحيل، وبالتوجّه غربًا إلى مشارف القدس. هناك يمكن لأبناء عشيرته العثور على عمل. لم يكن قراره سهلاً، فهو ولد في البرّيّة وعاش طفولته وشبابه فيها، وهو الآن كهل، وله فيها ذكريات.

أمّه صبحاء لم توافق على الرحيل، ما جعل عبد الله يؤجّل تنفيذ القرار. قالت إنها لا تحبّ مغادرة البرّيّة حيث ولدت وعاشت. وقالت كيف يمكنها مغادرة المكان الذي يحتضن قبر زوجها؟ وكيف يمكنها العيش في مكان آخر بعد هذا العمر؟ هي

محمود شقير، كاتب وقاص من فلسطين.

التي لم تزر القدس إلا عددًا قليلاً من المرّات، ولم تغادر البرّيّة إلا حينما ذهبت إلى بيت الله الحرام لتؤدّي فريضة الحجّ صحبة زوجها. بذل ابنها جهودًا مضنية لإقناعها بالرحيل، ووعدها بأن يأتي بها إلى البرّيّة كلّما رغبت في زيارة قبر أبيه.

ظلّت أمّه متمنّعة، وكذلك زوجته مثيلة وعمّه عبد الجبار وآخرون من أبناء العشيرة. لم يكن عبد الله مرتاحًا لتمنّعهم، فهو الآن مختار العشيرة. بعد أشهر من احتلال الانكليز للبلاد أصبح مختارًا، وقد مرّ على ذلك سنوات، وهو الآن يشعر بالحاجة إلى أن يكون قريبًا من المدينة ومن دوائر حكومة الانتداب. في زمن الأتراك كان والده محمّد هو مختار العشيرة، وكان الابتعاد عن مراكز الحكّام مطلوبًا آنذاك انصياعًا للحكمة التي تقول: لا تمرّ من قدّام حاكم ولا من ورا بغل. والآن لا بدّ من مغادرة البرّيّة، لأنّ زمنًا جديدًا ابتدأ منذ أن أصبحت البلاد تحت حكم الانكليز، ومنذ أن تزايدت الهجرة الصهيونية إليها، ولأنّ الخطر هو الخطر في البرّيّة وفي غيرها من أماكن البلاد.

مهيرة، زوجة أبيه، وزوجة عمّه بعد موت أبيه، تحمّست للرحيل الذي يقرّبها من القدس، لأنّها وقعت في حبّها منذ زيارتها الأولى لها. أخته من أبيه، معزوزة التي كبرت ولم تتزوّج بعد، شجّعته على الرحيل. معزوزة منذ أن أنهت حدادها على حبيبها الذي قتل وهو يخدم في قوّة الحدود، لم تظفر بعريس، فلم يكفّ نهداها عن الهديل. لمعزوزة نهدان مثل حمامتين بيضاوين. ينام النهدان في النهار ويستيقظان في الليل، يطلقان هديلهما الذي يملأ البيت ويفيض نحو الخارج فيسمعه الجيران. معزوزة رغبت في مغادرة البرّيّة لعلّ نهديها ينسيان لغتهما ويتوقّفان عن الهديل، ولهذا السبب شجّعت أخاها على تنفيذ قراره من غير إبطاء، لكنّ أمّه والآخرين أوقعوه في بلبلة، فهو يحبّ البرّيّة مثلهم، وهذا لا يعني البقاء فيها إلى أبد الآبدين.

كان كلّما أَلَحّوا عليه بالبقاء فيها يغادر مضارب العشيرة ويتّجه نحو الخلاء الفسيح على صهوة فرسه. تركض الفرس في السهل وصولاً إلى سفح الجبل، والسماء مجلّلة بغيوم بيضاء حيث لا مطر، والقحط يأكل وجه الأرض. ينزل عن فرسه ويقودها على مهل، ثم يجلس فوق صخرة مطلّة على المضارب وعلى الجبال البعيدة وعلى المدى

الممتدّ نحو الغرب، ولا تغيب عن باله الأيام التي قضاها هنا وجعلت لحياته مذاقًا لا ينساه.

وهو يعي أن للبريّة أعرافها التي ابتدعتها أجيال متعاقبة من أبنائها. هو أحد هؤلاء الأبناء، ظلّ منذ شبابه المبكّر متأهّبًا لمواجهة الوحوش بالكلاب الجارحة وببنادق قديمة. وظلّ معنيًا بإغداق الحبّ على من حوله بأسلوبه الخاص.

في أيّام الصيف القائظة، كان ينصبُ بيتًا من شعر الماعز في الطرف القصيّ من بيوت العشيرة، تهرّ من حوله كلابه وتنبح نباحًا متقطّعًا، ويجثم قطيع الماعز الذي يملكه في الفسحة الترابية المترامية أمام البيت، أو في الحظيرة المحاطة بسلسلة حجريّة، تنبعث منه أصوات تتراوح بين طقطقة أسنان الماعز وهي تمضغ ما تجترّ من طعام، وبين ثغاء بعض الجديان أو تناطحها العابث الودود، أو «بعبعة» تيس هائج يحاول عنزة متمنّعة. ولا يندر أن تهبط على طرف الحظيرة بومة، تطلق نعيبها المشؤوم، يركض عبد الله نحوها، يطردها، ويستعيذ بالله من الشرور.

بعد أن تنشر العتمة رداءها الخفيف على البرّيّة تحت قمر متلألئ في السماء، يخفّ الضجيج وتضطرم نفس عبد الله بمشاعر شتى، ويبدو مستعدًّا لأيّ عراك. يبدو في الوقت نفسه متعطّشًا للحظات من اللذة، يتفحّص بعينيه الحادّتين أطراف السهول الساكنة في جلال الليل، تحسّبًا من ذئب غادر أو من سارق، فلا يرى أو يحسّ ما يكدّر صفوه، ينضو عنه ثوبه، يتبدّى بالشعر المتكاثف على جسده كأنّه من وحوش البريّة، يسارع إلى زوجته المستلقية في فراشها، يعرّيها بلا استعصاء، كما لو أنّها كانت تنتظره، يتلألأ جسدها تحت النور الخافت الذي يرسله القمر، يلتحم بها وهي ترسل حمحمات خافتة مثل فرس، ويشعر بأنّه سلطان هذه البرّيّة الشاسعة. تمتدّ يده إلى بطنها، يتحسّسه كما لو أنّه يستعجل قدوم طفله الأوّل.

تهمد حركته إلى جوارها، ولا يغفو على الفور. تطلّ عليه الهموم، ويتذكّر ما قاله الضابط التركي لوالده حينما داهم مضارب العشيرة بحثًا عن الشباب لإرسالهم إلى الحرب. غادر الشباب المضارب في اللحظة المناسبة واختفوا في الجبل. عبد الله

اختفى أيضًا في الجبل. وقال الضابط إنّ أخوّة الدين تفرض على كلّ رعايا السلطنة أن يهبّوا للجهاد. قال: هذه المرّة أنتم مطالبون بالدفاع عن القدس. لم يستجب الشيخ محمّد، والد عبد الله، لهذا الكلام. ولم يستجب لما هو أقلّ شأنًا من ذلك، فحينما ذهب بعض أبناء جيرانه في البرّيّة من عشائر السواحرة، ومعهم التاجر اليهودي المقدسي يتسحاق إليشار وابن القدس حسين الحسيني، إلى مدينة الكرك في شرق الأردن لشراء القمح من هناك، والعودة إلى فلسطين لتزويد الجيش التركي بما يحتاجه منه، فإنّه لم يوافق على الذهاب معهم لأسبابه الخاصة. صحيح أنّه يحبّ القدس لكنّ كلام الضابط لم يهزّ مشاعره، وهو لم يتّخذ موقفه من عدم الذهاب إلى الكرك وكذلك موقفه هذا اعتباطًا، ففي مداهمات سابقة لمضارب العشيرة اقتاد الأتراك أربعة من أخوته واثنين من أبنائه مع آخرين إلى حروب السلطنة. وكانت نتيجة ذلك بالغة الفداحة: قتل ابناه وثلاثة من أخوته، والرابع تمرّد على أوامر ضابطه التركيّ فأودع السجن، وتمكّن من الفرار بعد أن واجه الموت غير مرّة. ظلّ يتغذّى بالحشائش والجنادب والسحالي وهو تائه في الدروب البعيدة، إلى أن قُيّضت له العودة، فلم تكد زوجته تعرفه، وحينما عرفته احتضنته أمام الرجال، في مشهد ظلّت صبحاء، أمّ عبد الله، تتحدّث عنه طويلاً للأبناء وللأحفاد كلّما حانت ساعة سمر. لم يستجب الشيخ، ولم يرفّ له جفن، وهو يستمع إلى كلام الضابط. قال له: كفاية علينا أولادنا وإخوتنا اللي انقتلوا في الحرب.

قال الضابط: يعني، لن تنصروا إخوانكم في الدين، ولن تدافعوا عن القدس!

لم يجبه الشيخ، فالموقف لم يعد بحاجة إلى إيضاح. سادت لحظة صمت، أخذ الضابط التركي يتفرّس في وجوه أبناء العشيرة الكهول الواقفين أمامه، ولم يكن فيهم واحد في سنّ الجنديّة. في ما مضى كان بوسعه أن يكون أكثر تشدّدًا معهم. الآن، لم يعد ذلك ممكنًا خوفًا من تمرّدهم، بعد الخسائر التي تكبّدوها في حروب السلطنة، وبعد أن ضعفت قبضة السلطنة على العشائر التي تجد لها ملاذًا في الجبال الوعرة وفي الأماكن النائية، لذلك ظلّ ملتزمًا جانب الحذر. ابتسم ابتسامة صفراء، حدّق في وجه الشيخ وسأله: أنت مختار العشيرة؟

– نعم.

قال في استعلاء كمن يقرأ نصّاً مكتوبًا في ورقة: بهذا تحكم أنت وأبناء العشيرة على أنفسكم بأنّه لا قيمة لكم، وستظلّون جنكلة مثلما أنتم الآن.

ظلّ الشيخ صامتًا، ما جعل الضابط التركي موقنًا من أنّه لم يعد ثَمّة كلام يمكن أن يقال. كاد عبد الله ينفجر من الإحساس بالذلّ حينما عرف أنّ القدس كانت محور الكلام. نقلت له كلَّ ما قيل والدتُه صبحاء التي كانت تصغي إلى كلام الضابط وهي واقفة خلف ردن البيت. ردّد عبد الله الكلام مرّات عدّة كما لو أنّه يعذّب نفسه على وقع الكلام: نظلّ جنكلة، بدوًا رحّلاً لا قيمة لنا، ولا نهبّ للدفاع عن القدس! وقالت له أمّه إنّ الضابط بعد أن تلفّظ بكلماته، ضغط على بطن حصانه بحركة غاضبة من ساقيه، وصاح في الشيخ محمّد ومن معه: تفرّقوا من أمامي يا جنكلة، تفرّقوا.

ابتعدوا مفسحين في الطريق للضابط وللعسكر الذين مرقوا فوق خيولهم مسرعين. ثارت خلفهم سحابة من غبار انعقدت فوق البيوت وحظائر الأغنام. ظلّ الرجال يرقبون الخيول المتراكضة عبر السهل، وحينما ابتعدت الخيول، وانقشعت سحابة الغبار، عادوا إلى النظر في وجوه بعضهم بعضاً. أطرق الشيخ محمّد برأسه نحو الأرض، ثم توجّه إلى المضافة وتبعه الآخرون.

جلسوا وتأمّل الشيخ ما جرى وشعر بامتعاض. فقد ألحق الضابط إهانة به وبعشيرته. وحين عاد عبد الله وبقيّة الشباب إلى المضارب قيل كلام كثير. تحمّس عبد الله وعدد من أبناء العشيرة لفعل سريع، فهم لم يحتملوا الإهانة، وأدركوا أنّ نصرة الأتراك في الدفاع عن القدس واجبة عليهم، فلماذا التهرّب من هذا الواجب والتنصّل من الدعوة للجهاد؟ حاول الشيخ تخفيف العبء عن نفسه، دخل في مماحكات مع من حوله. قال لابنه عبد الله: كنت جيت من الجبل وتكلّمت مع الضابط.

– لو جيت وتكلّمت ما خلصت من زعلك.

صمت الشيخ لحظة، وراح يبحث عن تبريرات: لا تنغرّوا بكلام الضابط عن

القدس، اسألوني أنا عن الأتراك وظلم الأتراك.

لاحظ أنهم استمرّوا في صمتهم، فازداد حماسة لموقفه: سمعتوا عن السفربرلك، وعن الجوع؟

– سمعنا.

– نسيتوا ضريبة العشر وحصّة السلطنة من قمحنا وشعيرنا؟

– لا ما نسينا.

– طيّب، ما دام انكم مش ناسيين، ليش تعتبون عليّ.

رغب عبد الله في مناكفة أبيه: أنت يا والدي ناقم على الأتراك.

– نعم، أنا ناقم.

استمرّ الحوار ولم يتراجع الشيخ محمّد عن موقفه. وحينما وجد عبد الله أنّ مواصلة الكلام لن تفضي إلى نتيجة، واصل مناكفته لأبيه وقال: صدق من قال جدّنا أبو لهب (قالها أحد الخصوم منددًا بعشيرة العبد اللات، متّهمًا إيّاها بالكفر، وظلّ رجال العشيرة يتناقلون هذا الكلام على سبيل المزاح).

ابتسم الشيخ رغم ما يعتريه من ألم، وقال:

– اذكر الله يا عبد الله.

– لا إله إلا الله.

بحث الشيخ بين الجالسين عن أخيه عامر الذي هرب من سجن الأتراك، فلم يره. لاذ بالصمت ولم يعد يصغي إلى ما يدور في المضافة من كلام. ولم يتمكّن عبد الله من تصحيح غلطة أبيه، حاول ذلك في الأسابيع التالية، تشاور مع بعض أبناء العشيرة، مقترحًا عليهم الإلتحاق بالجيش المرابط على جبهة القتال دفاعًا عن القدس، فأبدوا استعدادهم للقيام بهذه المهمة. وحينما انتبه الشيخ محمّد إلى ما ينوي ابنه والآخرون الإقدام عليه، تصدّى لهم ومنعهم من مغادرة مضارب العشيرة، فانصرف عبد الله على مضض إلى النظر في شؤونه الخاصّة، وكان عليه أن يخفّف من قلق فاطمة التي أنجبت طفلها بعد سبعة أشهر من الزواج.

فاطمة كانت قلقة وخائفة من الفضيحة، وعلى العكس منها كان زوجها عبد

الله، ابتهج أثناء عودته من المرعى والنسوة يباركن له بالمولود. فاستقبال العائلة لمولود ذكر يعزّز مكانتها، ويخفّف من وقع الإهانة التي لم يستطع هو ووالده نسيانها.

ترك القطيع يمضي نحو الحظيرة، ومضى إلى بيت والده. وجده جالسًا في المضافة على فرشة من صوف، ومن حوله عدد من رجال العشيرة. جلس بين الرجال وهو يتلقّى التبريكات. تنحنح الشيخ محمد، وسأل: ما اسم المولود يا عبد الله؟

قال من غير تردّد: محمّد.

أحنى الشيخ رأسه وقد أثقلته النشوة.

اندلعت في فضاء البرّيّة الزغاريد، وغنّت النساء لمحمّد الجدّ ولمحمّد الحفيد.

مع ذلك، لم يسلم شرف فاطمة من مرّ الكلام. راجت شائعة تقول إنّها كانت حاملاً قبل الزواج. وظلّت الشائعة تسري من بيت إلى بيت حتى تدخّل الشيخ محمد واعترض سريانها اللئيم، وكان لهيبته أثرها على أبناء العشيرة، فاعتبروا الولد سُباعياً، وقالوا إنّ الولد السباعي يشبّ وهو على قدرٍ من الشجاعة. ورغم ذلك، استمرّ الهمس في جلسات النساء.

عبد الله لم يكترث للهمس. ولن ينسى ذلك اليوم عند سفح الجبل: هو الشاب المملوء عفويّة وبراءة يرعى أغنام أهله. وعلى مسافة منه، ترعى فاطمة أغنام أهلها. هي الأخرى مملوءة عفويّة وبراءة، ثوبها ينساب على جسدها باسترسال، وخدّاها متورّدان. وجد نفسه وحيدًا معها. ذلك يحدث في العادة، والسماء كانت مجلّلة بالغيوم، فكأنها تهب غطاء لمن يريد التكتّم على أمر ما.

– صبّحك الله بالخير يا فاطمة.

– يسعد صباحك يا عبد الله.

جلس فوق العشب، وقال لها: اتركي الأغنام ترعى، واجلسي.

جلست بالقرب منه، شعرت بخجل وبشيء من الخوف، وكان الخلاء مفتوحًا على احتمالات شتّى. دار بينهما حديث متقطّع عن الرعي والأغنام، عن المطر والغيوم، عن الأماكن البعيدة التي تقع خلف الجبال، وعن النساء والرجال الذين يعيشون هناك حياة أكثر رغدًا من حياتنا هنا. هذا ما يقوله الذاهبون إلى القدس لبيع الصوف

وحليب الأغنام.

ضحكت وهي تستمع إلى حديثه عن الشقاء الذي تحياه العشيرة في هذه البرية النائية. شعر بارتياح وهو يصغي إلى ضحكتها التي تمسّ القلب. تداخل قطيعه مع قطيعها حتى لم يعد ممكنًا التمييز بينهما. ولم ينتبه إلى القطيع، انتبه إلى حُمّى تسري في بدنه لم يشعر بها من قبل. شمّر ثوبه وبان جسده الأسمر الفتي. ارتبكت فاطمة لأوّل مرّة وهي تلمح تكوينات جسده. عبد الله فعل ذلك مرارًا في السنوات الماضية وهو طفل يرعى الأغنام، فعل ذلك أمام فاطمة وأمام غيرها من البنات لدوافع لا تحتمل أيّ التباس: مرّة لكي يبول، وأخرى لكي يسبح في بركة ماء، وثالثة لكي يعرّض بدنه للشمس. ولم يكن يشعر بأيّة حُمّى تسري في بدنه، وفاطمة لم تكن تعير انكشاف جسده أمامها وأمام غيرها من البنات أيّ اهتمام. هذه المرّة، ارتبكت وأشاحت بوجهها عنه.

جذبها إلى جواره حتى لامس جسدها جسده. تمدّدت على العشب ومشاعر مبهمة تعتريها. التحما فوق العشب على نحو لم يتوقّعاه، ولم يعرفاه من قبل، وظلا كذلك وقتًا وهما لا يحسّان سوى وجيب الدماء التي تسري في عروقهما.

بعد أن همدت حركتهما، وانجلت الأحاسيس الحارقة التي اضطرمت في جسديهما، بكت فاطمة واضطربت: شو اللي عملته؟

بدا مسكوناً بالخجل: ما قدرت أمنع نفسي.

– أمّي رايحة تنجن إذا عرفت.

قال لكي يطمئنها: رايح أتزوّجك.

لم تصدّق أذنيها: تتزوّجني!

– ما تقبلين الزواج بي؟

– أقبل، والله أقبل.

أبهجتها فكرة الزواج التي لم تدر بخلدها من قبل، أو ربّما استبعدت وقوعها بمثل هذا الاستعجال. وفي ما بعد، أصبحت أكثر حذرًا في تعاملها مع عبد الله، ظلّت تذكّره بوعده لها شهرين كاملين، تصدّقه حينًا ويخيب أملها فيه حينًا آخر. وذات

مساء، تجمّع رجال العشيرة وبعض رجال العشائر المجاورة في ساحة وسط المضارب. النسوة تجمّعن في مكان قريب من الساحة للاستماع إلى أحاديث الرجال، وهنّ في حالة من التحفّز والترقّب. خيّم الصمت كأنما لإعطاء المناسبة ما تستحقّه من جلال. جلست فاطمة على حجَر وهي مطرقة برأسها إلى الأسفل، ورموشها تنسدل فوق عينيها الواسعتين. رفّ جفناها ورمقت عبد الله وهو جالس أمامها على حجر. سدّد نظرات غامرة نحوها، وقال: أنتِ على حجر وأنا على حجر.

بلعت ريقها وقالت: أنا الأنثى وأنت الذكر.

زغردت النسوة حالما سمعن كلماتها التي سرت في صدورهنّ مثل سريان النسيم في الحقول. أطلق الشيخ محمّد أعيرة ناريّة من بندقيّته احتفاء بالمناسبة، تبعه بعض أفراد العشيرة في إطلاق أعيرة ناريّة من بنادقهم، جعلت قطعان الماشية تجفل في مرابضها، واضطرّت الكلاب إلى الاحتماء بحواشي المضارب.

سهرت العشيرة سبع ليالٍ احتفاء بعرس عبد الله. حطبٌ كثير أشعلته العشيرة في ليالي العرس، والرجال انتظموا في السامر وسحجوا، ثم عقدوا حلقة الدبكة ودبكوا على أنغام الشبابة، والنساء رقصن وغنّين وزغردن. والبنات اللواتي لم يتزوّجن بعد، أظهرن مفاتنهن أمام أمّهات الشباب لعلّهن يخترنهنّ عرائس لأبنائهن.

ولم يفارق عبد الله زوجته طوال الأشهر الأولى للزواج. اعتاد أن يصطحبها معه إلى المرعى. يمضيان النهار معًا، يأكلان الطعام معًا ويشربان حليب الأغنام معًا، والأغنام ترعى على مقربة منهما، ثم يجمعان الزعتر البرّي معًا من سفح الجبل. ويعودان إلى الجلوس فوق العشب وهما متلاصقان، يتبادلان الكلام المهموس، ويستعيدان المتعة التي مارساها هنا في الخلاء. عبد الله يبدو في غاية الانتعاش، وفاطمة كذلك، لولا بعض مشاعر من خشية وإحساس بالإثم جرّاء ما فعلت قبل الزواج، يعتريها هذا الإحساس فجأة ثم تقصيه من وعيها كي لا يعكّر عليها بهجة اللحظات التي تقضيها مع زوجها ولا تتكرّر في كلّ الأوقات.

هزّت الفرس رأسها وأطلقت صهيلاً خافتًا كأنها تنبّه عبد الله إلى أن الوقت يمضى وهو مستغرق في تأمّلاته. هزّ رأسه هو الآخر ونظر إلى المكان الذي جمعه بفاطمة

أوّل مرّة هنا فوق العشب قبل سنوات. الآن لا يوجد عشب، أرض جرداء فقط تنتظر المطر وليس ثمة مطر. ركب فرسه وعاد إلى المضارب مصمّمًا على إقناع أمّه بالرحيل. الوحيد الذي رحل نحو الغرب هو ابنه محمّد. لم يستشر محمّد أباه، ولم يطلب إذنًا من أحد. افتقده أبوه ذات صباح، ولم يعثر عليه في مضارب العشيرة ولا في الأماكن القريبة منها. مضى محمّد نحو الغرب، قيل إنّه في القدس، وقيل إنّه في يافا يعمل في مواخيرها حيث تكثر اليهوديّات ونساء من جنسيّات أخرى. وكان هذا مبعث قلق لوالده وخوف من المجهول، مع أنه لا يصدّق حتى الآن أنّ ابنه الذي تحدّر من صلبه يمكن أن يعمل في ماخور.

في طريقه إلى المضارب مرّ بمقبرة العشيرة. هنا يرقد زوج حفيظة الأخير وثلاثة من أقاربه الذين قتلوا بسببها. هنا قبر والده الشيخ محمد، وقبر جدّه الشيخ عبد الله قتيل الماء، وقبر جدّته مهيوبة التي لم تكن مثلها أية امرأة. هنا قبور الأجداد والجدّات. قرأ الفاتحة على أرواحهم جميعًا وهو يتذكّر كم تألّم والده من كلمات الضابط التركي!

كان الشيخ محمّد كلما تذكّر ذلك الموقف أمام الضابط شعر بألم واستياء، ولم يخفّف من ألمه واستيائه سوى ذلك الجندي التركي الذي احتمى بالعشيرة، فكأنّ الشيخ كان على موعد معه. إذ قبل أن تنتهي الحرب وتحلّ الهزيمة بتركيا، وصل علي أوغلو مضارب عشيرة العبد اللات وهو بادي التعب شديد الإعياء. استجار بالشيخ وقال إنه ضلّ الطريق، ولم يعد قادرًا على الالتحاق بالجيش الذي انسحب من مواقعه وأعاد التموضع في مكان جديد. قال إنّه ملّ حياة العسكر ولم يعد يطيق المشاركة في الحروب. لم يقل إنّه هرب من الحرب كي لا يسخر منه رجال العشيرة. تعاطف معه الشيخ وأجاره وخصّص له زاوية في مضافته ينام فيها، إلى أن يتمكّن من تدبير أحواله على نحو ما.

غير أنّ مقام علي أوغلو في العشيرة طال، وأصبح مع الزمن واحدًا من أبنائها. اعتقد الشيخ محمّد منذ البداية أن وراء علي أوغلو أمرًا يستدعي بقاءه هنا، وخَمّن أنه هارب من الجيش، ولذلك فهو يخشى العقاب ولا يفكّر بالعودة إلى موطنه، رغم

ما في ذلك من معاناة، وبالذات حينما يستبدّ به الحنين إلى أهله.

ولم يبحث الشيخ مع علي أوغلو أيّ أمر لا يحبّ الإفصاح عنه. ظلّ يمنحه عطفه ورعايته، وفي ما بعد حينما أصبح عبد الله، ابن الشيخ محمد مختارًا للعشيرة، وتوطّدت علاقته مع الدوائر الحكومية، قدّم لإحدى هذه الدوائر أوراق علي أوغلو ممهورة بختمه وهي تحمل اسمه الجديد: علي حسّان عبد الله، فأصبحت لديه هويّة فلسطينية شَرْعنتْ بقاءه في البلاد وحمته من عسكر الانكليز، ومع ذلك ظلّ اسمه المتداول بين رجال العشيرة ونسائها: علي أوغلو. قال له الشيخ محمّد ذات مساء: أنت يا علي ولد من أولادنا.

ردّ عليه عليٌّ بأدب واحترام: تسلم يا عمي الشيخ.

اطمأنّ له رجال العشيرة وهو يروي نتفًا من سيرة حياته في قريته البعيدة، وصار يلازم المضارب حينما يغادرها الرجال إلى المراعي أو إلى أشغال أخرى تتطلّب غيابهم عن بيوتهم، فلا يكون فيها أثناء النهارات الطويلة سوى النساء والأطفال وبعض كبار السن من الرجال وعلي أوغلو، الذي كان ينظّف حظائر الأغنام في الصيف وفي الشتاء، ويحرص على تفقّد الأقنية المحيطة بالمضارب كي لا تدهمها أمطارُ الشتاء. كان علي أوغلو مداومًا على أداء الصلاة، ولم يكن في سلوكه ما يجعله محلّ شبهة أو ارتياب.

وبدا أنّ حياته استقرّت في البرية، لكنّه ظلّ يشعر بالحاجة إلى امرأة. شجّعته على ذلك كثرة الزيجات في العشيرة، كما لو أنّ رجالها لم يُخلقوا إلا للزواج بالنساء اللواتي يتباهين بكثرة إنجاب الأولاد.

ولم يستطع منع نفسه من التحديق في أجساد النساء كلما خرجن لإحضار الماء، أو اتجهن نحو الأغنام لحلبها أو لتقديم الطعام لها. كانت طبيعة الحياة في البرّيّة حيث القسوة وشظف العيش تدفعه إلى ذلك، وكان طقس البرّيّة المتنوّع واتساع المدى فيها يشعل الأشواق في قلبه، فيجعله مشدودًا إلى الرغبات الجسدية التي تبحث عن إشباع. ولطالما أعجبته الأجساد الممشوقة الملفوفة في ثياب سوداء، أجساد يحرّض حجبها وإخفاؤها على التفكير في النقيض المتمثّل في الكشف والإظهار. وكثيرًا ما

هيّجت عواطفه العيون الواسعة والخدود التي موّهت شمس البرية بياضها البهيج. وهو لا ينكر بينه وبين نفسه أنّ ثمة نساء في العشيرة يرسلن إليه كلّما حانت فرصة مواتية نظرات تنمّ عن عواطف مشبوبة، وفيها رغبات لا تحتاج إلى دليل أو برهان. علي أوغلو لم يكن يمضي مع تلك النظرات إلى النهاية لسبب وحيد: الوفاء لمن أجاروه واعتبروه واحدًا منهم. ثم إنّه لا يستطيع أن يحزر ما تفكّر فيه هؤلاء النساء، فلربما كانت نظراتهنّ المغوية مجرّد لعب بالأعصاب.

وظلّت تلحّ عليه فكرة واحدة: التقرّب من الشيخ محمّد لتزويجه من إحدى بنات العشيرة. علي أوغلو يريد امرأة ينام في فراشها بالحلال. هذا ما كان يردّده في الأشهر القليلة الماضية. مع ذلك، سيظهر من بين أبناء العشيرة من يتّهمه بإقامة علاقات خفيّة مع بعض النساء، وسيولد في العشيرة بعد إقامته في مضاربها أطفال، يؤكّد المشكّكون أنّ لهم ملامح علي أوغلو، في حين سيظهر في الوقت نفسه من يقول إنّ هذا التشابه ناتجٌ عن وحام النساء، اللواتي حبلن بأطفالهن في وقت كنّ يرين فيه علي أوغلو الطويل القامة صاحب الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين.

بعد انتظار، ظفر علي أوغلو بامرأة، وقال إنه مدين مدى الحياة للشيخ محمد الذي لم يعد مستقرًا على حال. صارت تتناوشه أفكار شتّى وحسابات. وقد خطرت الرغبة في الزواج مرّة سابعة بباله. ربما كان السبب راجعًا إلى البلبلة التي أعقبت حواره مع الضابط التركي وظلّت تطارده فترة طويلة، أو إلى تكثير الذكور في العائلة، أو إلى الأمرين معًا. همّ بإبداء هذه الرغبة ثم وجدها مربكة له، فآثر تأجيلها ريثما يتزوّج ابنه عبد الله الذي أخبره برغبته في الزواج من امرأة ثانية، كما لو أنّ ذلك كان ردّ فعل على حالة الضعف التي ظهرت عليها العشيرة في الآونة الأخيرة، فلم يبد أيّ اعتراض، بل إنّ فكرة انبثقت في رأسه فجأة. بحث عن عبد الله فوجده قريبًا من حظيرة الأغنام، قال له: نزوّجك ونزوّج أخوتك الثلاثة.

– أخوتي صغار يا والدي.

– لا مش صغار، أكيد بلغوا مبلغ الرجال من سنة وأكثر.

لم يجد عبد الله سببًا لمزيد من الاعتراض على كلام أبيه. ليتزوّجْ إخوته، ولتعمر

البريةَ أعدادٌ كبيرة من هذا النسل المبارك، ولتجد الصبايا متعتهن الحلال مع أبناء عمومتهن وأبناء أخوالهن، ومع أبناء العشائر الأخرى الراغبين في تغريب النكاح ليكون لهم أولاد أقوياء.

– مثل ما تريد يا والدي، خير وبركة.

اقترن عبد الله بابنة أحد شيوخ العشائر. لم يكن رآها من قبل. قالت له أمّه صبحاء: من شدّة جمالها، تفكّ المحكوم بالإعدام عن حبل المشنقة.

كلمات أمّه جعلته متحمّسًا للزواج بالفتاة. والفتاة نفسها لم تكن تعرف عن عبد الله شيئًا، أمّها قالت لها إنّه ابن شيخ يعرفه أهل البرّيّة كلّهم، وبعض النساء قلن لها، عبد الله هذا محبّ للنساء عطوف عليهن. قلن ذلك انطلاقًا من شغفه بزوجته الأولى فاطمة، ولم تفكّر الفتاة كثيرًا بالأمر، بل إنها تغاضت عن وجود زوجة أولى لعبد الله، وكانت راغبة في الزواج منذ أن بدأت الشهوة تلحّ عليها في ليالي أرقها.

بنى عبد الله لزوجته الجديدة بيتًا على مقربة من بيت زوجته الأولى، وانقطع عن الخروج إلى المضارب سبعة أيام بلياليها. فسّرت بعض النسوة ذلك بأنه عائدٌ لجمال مثيلة ولقدرتها على اجتذاب الذكر إلى فراشها أطول مدّة ممكنة. حينما وصل هذا الكلام إلى مسامع الشيخ محمد أدرك أنّ جيلاً جديدًا آخذٌ في الانتشار فوق هذه البرية، ما جعله يشعر بشيء من البهجة، وراح يفكّر في الزواج مرّة أخرى.

في زمن سابق، امتلك الشيخ محمد الجرأة على تنفيذ هواجسه في الحال. هذه المرّة تلكّأ لأسباب عدّة، ثم وجد أنه أصبح أسير تداعيات متضاربة. وبدا مشتّت الذهن، يمضي ساعات طويلة كلّ يوم محدّقًا في دوّامات الغبار التي تثيرها الرياح، لا يكلّم أحدًا ولا يستمع إلى أحد. كانت تؤرّقه بين الحين والآخر الإهانة التي تلفّظ بها الضابط التركي.

وذات صباح، انحدرت الدموع من عينيه، فبلّلت شعر ذقنه الفضيّة، وقرّر في حشد من أبنائه وبناته وأقاربه التوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحج. قال والدموع ما زالت تسحّ من عينيه: ملاك أبيض زارني في المنام، وبشّرني بأني مقبل على زيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله عليه السلام. وقال إنه لن يذهب إلى الحج،

إلا بعد أن يتزوّج بإحدى بنات العشيرة وتحبل منه، ثم يغادرها ضاربًا في الصحراء، متوجّهًا بقلبه وعقله إلى بلاد الحجاز.

لم يناقشه أحد ممن استمعوا إليه في ما قال. كلمة الشيخ لا تصير اثنتين رغم اختلاف الظروف واهتزاز القناعات السابقة. الأبناء تلفّتوا نحو بعضهم بعضًا وقالت عيونهم كلّ ما لم تقله ألسنتهم: أبوهم قرّر الزواج ولا رادّ لمشيئته، والبنات ابتسمن ابتسامات ماكرة حاولن تغليفها بالطلب إلى رب العالمين أن يهب والدهنّ العمر المديد.

اقترن بامرأة في السابعة والعشرين، قتل زوجها غدرًا أثناء عودته من المدينة، بعد أن باع فيها عددًا من الخراف. قيل إنّ لصوصًا قتلوه لكي ينهبوا ما معه من مال. حدبت مهيرة على الشيخ الذي يكبرها بثلاثين سنة، وجعلته يتذوّق طعم الحياة من جديد. ظلّ ملازمًا لها شهرين كاملين قبل أن يحلّ موعد ذهابه إلى الحج، ما أثار غيرة نساء الشيخ الأخريات. وما أثار غيرتهن كذلك، أنّ لمهيرة مشية ناعمة، فهي تدرج على الأرض بسلاسة واسترخاء، وأثناء ذلك تتساقط من بين ساقيها كرات ذهبية مثل أقمار صغيرة، والنساء يحاولن التقاط الكرات، ينحنين نحو الأرض فلا يعثرن على شيء، وحينما تغسل رأسها فإنّ الماء النازل من خصلات شعرها يتحوّل إلى خيوط من ذهب، والنساء يحاولن القبض على الخيوط ولا يعثرن عليها، وتبلغ بهن الحيرة منتهاها وهنّ يرين الذهب ولا يظفرن به، فيستعذن بالله من الشيطان الذي يوسوس في صدورهن، ولا يتوقّفن عن الانشغال بأمر مهيرة، ويستقرّ رأيهن أخيرًا على أنّ ما يتساقط من بين ساقيها هو دم الحيض الذي ينزّ من أسفل بطنها، ولا يلبث أن يتلاشى في لحظة خاطفة، وصرن يلصقن بها التهم كلّما اصفرّ العشب في المراعي والحقول، فأينما مشت وهي حائض فلا حياة للعشب، ما جعلهن يهمسن في جلسات النميمة بضرورة منع مهيرة من مغادرة بيتها كي لا تلحق أذى بالعشيرة وبالطبيعة التي تعتبر حضنها الحنون. لم يلق الشيخ محمّد بالاً لكلام النساء، ولم يغب عن بال مهيرة كيدهن، فهي ليست طفلة ساذجة، ولهذا احتاطت لكلّ شيء بدقّة وانتباه. وظلّ أمرها يحيّر نساء العشيرة، فلم تكترث لكلّ ما قيل عنها وما

سوف يقال.

وافق الشيخ على تزويج علي أوغلو واحدة من بنات العشيرة. كانت لدى حفيظة ابنة تجاوزت الثالثة والعشرين ولم يأتها خطّاب. قال له: أزوّجك زريفة.

وافق علي أوغلو على الفور وقال: هذا شرف لي يا عم.

وصل الخبر حفيظة التي قتل بسببها عدد من الرجال، كان آخرهم زوجها الذي اغتيل قبل سبع سنوات. توقّعت أن يرمي واحد من أخوة زوجها عباءته عليها معلنًا رغبته في الزواج بها، فلم يحدث ذلك، ولم تكترث لما آل إليه حالها، أقصت شهواتها بعيدًا وواصلت حياتها في بيتها مثل أيّة أرملة، وربّت من دون تذمّر بناتها الأربع وابنها الوحيد. طلبت من ابنتها أن تغتسل وترتدي ثوبها المطرّز الجديد. سخّنت زريفة الماء على النار ووضعت اللقن المعدني الدائري في قرنة البيت، ووقفت وسطه واغتسلت، ومشّطت شعرها ثم جمعته في جديلتين، ولبست ثوبها المطرّز. نظرت إليها أمّها بارتياح، وطبعت قبلة على جبينها وقالت: اسم الله عليكِ، ما أحلاك!

جاء الشيخ محمّد وعدد من رجال العشيرة. خطبوا زريفة لعلي أوغلو. وبدا الأمر مفاجئًا لكثير من البنات اللواتي اعتقدن أنّ إقامة علي أوغلو في مضارب العشيرة لن تطول، إلا أنها طالت. وسوف يتزوّج مرّتين بعد موت زريفة إثر مرض مفاجئ لم يمهلها طويلاً.

اقترن بزريفة، وعاشا معًا ثلاث سنوات، ولم يرزقا بأطفال. كانت زريفة متكتّمة على علاقتها بزوجها، ربما خوفًا من الحسد أو خشية من تكاثر الشائعات التي بإمكانها إفساد أجمل العلاقات. لم تعرف النسوة الفضوليّات شيئًا عن تفاصيل تلك العلاقة، رغم محاولاتهن الدائبة استدراج زريفة للكلام، فلم تتجاوب معهن ولم تكشف أمامهن أيّ سرّ من أسرارها، ما جعلهن يحملن في قلوبهن ضغينة لها، لم تماثلها سوى تلك الضغينة التي سيحملنها في ما بعد لوضحاء، زوجة عبد الله التي لن يقترن عبد الله بعدها بأيّة امرأة.

وذات ليلة، تحسّست مهيرة بطنها، وقالت للشيخ إنها حبلى، فامتلأ فخارًا. احتضنها كما لو أنه ما زال شابًا في العشرين. وفي الطريق إلى بلاد الحجاز، كانت

مهيرة تحتلّ حيّزًا واسعًا في قلبه وهو يقطع الصحراء.

قبل رحلة الحج بيوم واحد، توجّه الشيخ في رهط من أبناء عشيرته وبناتها نحو القدس لأداء صلاة الجمعة في مسجدها. اعتبر هذا الأمر واجبًا يمليه عليه ضميره تجاه المدينة، وتجديدًا لتعلّقه بها وولائه لها، وتكفيرًا عن عدم تلبية الدعوة التي وجّهها الضابط التركي إليه للدفاع عنها. الشيخ لم يهبّ للدفاع عن المدينة لانعدام ثقته في حكم الأتراك وفي قدرتهم على حمايتها. وبالفعل، وكما أثبتت الأيام، فإنهم لم يستطيعوا حمايتها. سقطت المدينة بأيدي الانكليز، سقطت فلسطين كلّها بأيديهم، وانسحب الجيش التركي مهزومًا مدحورًا. والمدينة ظلّت تواصل حياتها. صحيح أنها أصبحت تحت سيطرة محتلّين لا يضمرون لها خيرًا، إلا أنها ما زالت هناك رغم كلّ شيء، وبالإمكان زيارتها والصلاة في مسجدها، وما زال الشيخ يتذكّر ما تناقله رجال العشائر في الآونة الأخيرة عن تخريب الجيش التركي للبيت الذي تقيم فيه بنات سيدنا الشيخ صلاح في أريحا، وتحويله إلى إسطبل لخيولهم، فما كان من بنات سيدنا الشيخ الولي الصالح من أولياء الله إلا أن عاقبنهم بتمكين عسكر الانكليز من هزيمة الأتراك وطردهم من البلاد.

ركب الرجال الخيول والجمال والبغال والحمير، ومشت النساء خلف الرجال. تمنّت مهيرة لو أن الشيخ يردفها خلفه على فرسه الشهباء، فالطريق طويلة وهي لا تحتمل أن تمشي كلّ هذه المسافة، وتلك هي المرّة الأولى التي تزور فيها القدس. ما الذي سيحدث لو أنّه جعلها تركب الفرس؟ وما العيب في ذلك؟ تركب خلفه، وتشعر بمزيد من الحنان حينما يحتكّ جسدها بجسده أثناء سير الفرس.

كان الشيخ في تلك الأثناء مشغولاً بهواجسه، فهو على وشك أن يبدأ رحلة مختلفة في حياته، رحلة فيها انتباه للحياة الآخرة، وفيها توبة عن الذنوب، وتغيير لنمط السلوك الذي يقتضيه الحجّ وزيارة بيت الله. فالشيخ كانت تغريه الحياة الدنيا إلى حدّ كبير، انهمك فيها من دون تردّد أو استنكاف. وكانت لديه أطماع ونهم إلى تملّك الأرض وامتلاك النساء. استغلّ حاجة أقرب الناس إليه من أبناء عشيرته ومن أبناء العشائر الأخرى الذين كانت سنوات القحط تدفعهم إلى البحث عن لقمة

العيش، فيضطرون إلى رهن أراضيهم أو بيعها بأبخس الأثمان. كانت لدى الشيخ ثروة ورثها عن أبيه، ولطالما تحدّثت عشائر البرية عن جشعه الذي لا يقف عند حد. الآن يشعر وهو على وشك تغيير المسار بأنه تجاوز الحدود، ومن الآن فصاعدًا لن يتطاول على رزق أحد ولن يظلم أحدًا. ولن يراجع الماضي ويعود عن ظلم اقترفه أو باطل ارتكبه. ما مضى مضى والمهمّ لديه ما سوف يكون، ثم إنه على قناعة بأن أبناء عشيرته اغتفروا له ما بدر منه تجاههم، ولن يطالبوه بأي شيء، ربما كانت في قلوبهم أحقاد كامنة، وربما كانت في أنفسهم مرارة من تصرّفاته. لكنه يعتقد أن الزمن أنساهم كثيرًا مما كان يعتمل في نفوسهم تجاهه.

ولم يكن الشيخ طامعًا في تكثير أملاكه وحسب. كانت له نزوات قبل الزواج وبعده. حينما كان في سن المراهقة انهمك والده الشيخ عبد الله في تأمين حصّة العشيرة من المراعي ومن موارد المياه، وانهمك محمّد في مطاردة النساء. كان يتعقّبهن وهن ذاهبات إلى البئر أو إلى البركة لجلب الماء. يتأمّل جمالهن مثل المهووس ويطلق كلام الغزل من غير تحفّظ أو احتراس. ولم يقصر مغامراته على بنات عشيرته، وإنما تجاوزهن إلى بنات العشائر الأخرى. كان ينتظرهن لدى عودتهن من المدينة، ويبتدع حيلاً شتى، كأن يتقمّص شخصية ضرير أبله ليشجّعهن على الاقتراب منه من غير خشية أو حذر. يشفقن عليه ويجلسن قريبًا منه ويطعمنه من الحلوى التي اشترينها من المدينة. وفي الأثناء تغريهنّ شخصيته البلهاء بالتحلّل من الاعتبارات التي تحرص عليها النساء، فيتبسّطن في الحديث معه ولا يجدن حرجًا في التعبير عن رغباتهن، وهو يستثمر حاجتهن إلى ذلك فيضرب على الوتر الحسّاس، وهن يطلقن لرغباتهن العنان فيصلن معه إلى حدود بالغة الانكشاف، وهو يقود الدفّة بخبث وذكاء، ويقضي أوقاتًا ممتعة معهن تتكرّر بين الحين والحين.

وحينما بلغ به التمادي حدوده القصوى، عشق امرأة من عشيرة الرواجفة اسمها حفيظة (ستصبح في ما بعد زوجة لأحد أبناء عشيرته)، انتشر صيت جمالها في البرية، وتزاحم الخطّاب على بيت أبيها، كلٌّ منهم يريدها لنفسه. وحينما عشقها محمّد ابن الشيخ عبد الله، كانت متزوّجة من ابن عمّها الذي قتل غريمًا له ظلّ

متيّمًا بها إلى أن خسر حياته جرّاء ذلك. اعتاد محمد أن يركب فرس أبيه ويذهب إلى مضارب الرواجفة بعد الغروب. يكمن قريبًا من المضارب إلى أن تأتيه حفيظة، يقضي معها ساعة ثم يفترقان. وذات مرّة، بلغت بها الرغبة في كسر المألوف حدّ مراهنته على الخروج للقياه من بين النساء وهنّ يغنّين في بيت العرس الذي سيكون لأحد أبناء عشيرتها. تعجّب محمّد من رغبتها في التحدّي وطاب له أن يدخل هذا الرهان. تسلّل عند بزوغ القمر من الشرق، وكمن على مقربة من البيت الذي كانت النساء محتشدات فيه يرقصن ويغنين:

من بين البيوت / ولْفي مَرَق خيّال / من بين البيوت
ما قلت له فوت / الله على قليبي / ما قلت له فوت

تكرّرت الأغنية عددًا من المرّات، وتلتها أغنية أخرى وهو ينتظرها. سمع صوت حفيظة وهي تبادر إلى إطلاق الأغنية وتتبعها بقية النساء:

بَس ارفع ايدك / سلّمْ سلام احباب / بس ارفع ايدك
ولو كنت أريدك / ويش تنفع الحراس / لو كنت اريدك

تكرّرت الأغنية مثل سابقتها وهو ينتظر، وراحت حفيظة تهاهي:

ويها، جيت اغنّي وقبلي ما حدا غنّى
ويها، بقاع وادي فيه الطير يستنّى
ويها، ريتك يا عريس بهالعروس تتهنّى
ويها، وتظل سالم ويظل الفرح عنّا

ثم أطلقت زغرودة وتبعتها على الفور زغاريد النساء.

وبينما واصلت النساء ترديد الأغاني انسلّت حفيظة من بينهن وخرجت من البيت. رأى محمّد طيفها قادمًا نحوه من مسافة ما، وقبل أن تصل إليه فوجئ بعدد من شباب عشيرتها على مسافة منه، وقد انتبهوا إلى وجود فرسه قرب صخرة

في المكان. مشوا نحوها وسبقهم هو إليها حينما أحسّ بالخطر بدنو منه. لاحظت حفيظة ذلك فتراجعت وعادت إلى بيت العرس. ركب محمّد الفرس ونكزها ومضى مسرعًا ولم يعرفوه، فأتبعوه رصاصة من بندقية كانت معهم، فأصيب في كتفه إصابة طفيفة، ولولا أنّه تمكّن من الهرب في اللحظة المناسبة، لكان واحدًا من القتلى الذي ذهبوا ضحيّة اللهفة على وصال حفيظة. وكان سيكون قتيل النساء مثلما كان أبوه الشيخ عبد الله قتيل الماء. تكتّم الشيخ على إصابة ابنه، وحينما أدرك أنه قد يوقعه في مشكلة أو قد يفقد حياته جرّاء نزواته المتكرّرة، بادر إلى تزويجه لعلّه يثنيه عمّا هو فيه. ولم يفكّر باختيار واحدة من بنات العشيرة زوجة له، كان معنيًا بتمتين أواصر العلاقة مع عشيرة أخرى. قيل له إن لدى شيخ المطالقة ابنة جميلة تليق بأن تكون زوجة لابنه. ولم يعترض محمّد على اقتراح أبيه. خطب صبحاء وأعجبه جمالها وأصبحت زوجته الأولى، وستأتي بعدها ست زوجات. محمّد الذي ورث الزعامة عن أبيه، ظلّت عينه فارغة كما يقال، ولم يرتدع عن ملاحقة النساء. لكنّه كان متكتّمًا على نزواته، مع أنّ همسًا غير قليل كان يدور حول هذه النزوات في مجالس النساء. وكان بعض هذا الهمس يصل إلى أقرب الناس إليه، يحاول نفي ما يقال ويواصل حياته غير مكترث للهمس أو للشائعات. وظلّ كذلك حتى جاءه خبر مقتل أبيه عند بئر الماء. آنذاك اعتقد أنه أوغل في النزوات ولم ينتبه لما يحيط بعشبرته من تحدّيات، فوجد أن من واجبه الانتباه إلى من هم حوله. انتبه حينًا وواصل الاستيلاء على أراضي الآخرين حينًا آخر، وظلّت تتجاذب سلوكه أهواء شتى. وهو الآن آسف على كلّ ما بدر منه من تصرّفات لم تكن مقبولة بأيّ حال.

نفض رأسه ليقصي بعيدًا ما في رأسه من هواجس وذكريات. وبدا كما لو أنّه خَمّن ما تفكّر فيه زوجته التي تمشي خلفه، وكان ينبغي عليه أن يوفّر عليها مغبّة التعب منذ البداية حرصًا على الجنين الذي زرعه في بطنها. أوقف الفرس بالقرب من صخرة، وقال لها: اركبي يا مهيرة.

شعرت بالزهو وهي تعتلي الصخرة، ثم تعتمد على جسد الشيخ قبل أن يستقرّ جسدها فوق الفرس. ركبت خلفه وجعلت ساقيها مضمومتين على جهة واحدة من

ظهر الفرس، واستقرّت يدها عند خاصرة الشيخ، وشعرت بأنها مشمولة بالأمان. والشيخ شعر بابتهاج لأنّ زوجة شابّة تركب الفرس خلفه، وترسل إليه رسائل خافتة من يدها من دون أن تبوح بأيّ كلام.

قطع موكب الشيخ السهول والجبال، ومرّ بمضارب للعشائر، وانضمّ إليه بعض أبنائها. واقتربوا من قرى بيوتها مشيّدة من حجارة بيضاء، ومشوا في شارع عريض، ورأوا عربات عسكرية فيها جنود غرباء تسير في الشارع بين الحين والآخر. جنود شقر لم تلوّح وجوههم حرارة الشمس إلا قليلاً، وعلى أكتافهم بنادق. قال الشيخ بصوت سمعته مهيرة وعدد من الرجال: عشنا وشفنا عسكر الانكليز. ثم عمّ الصمت كما لو أنّ الموقف لا يسمح بمزيد من الكلام.

اقتربوا من سور القدس، وربطوا دوابهم في خان داخل السور، ومشوا في سوق تتوزّع على جانبيها الحوانيت، وداعبت أنوفَهم روائحُ اللحوم المشويّة والبخور والبهارات. ورأوا على يسار السوق كنيسة للمسيحيين الفلسطينيين، وبعد مئة متر كان كنيس لليهود الفلسطينيين.

بدت مهيرة مدهوشة مما ترى، وتمنّت لو أنها تأتي إلى هذه المدينة مرّة كلّ أسبوع، أو كلّ شهر. وغبطت أهلها الذين يعيشون فيها، واعتقدت أنّ حياتهم أفضل من حياتها التي تحياها هي وعشيرتها في البرية. وعرفت في ما بعد أن أهل المدينة هم جزء من الشعب الذي تنتمي إليه. عرفت أنها لا تنتمي إلى عائلة العبد اللات الصغيرة، وإلى عشيرة العبد اللات الكبيرة وحسب، بل تنتمي إلى شعب يسكن المدن وقرى الفلاحين ومضارب البدو. عائلتها وعشيرتها أيضا تنتميان إلى هذا الشعب. ثم تذكّرت العسكر الذين رأتهم في العربات، وارتبكت قليلاً لأنّ العسكر يحكمون المدينة التي أحبّتها منذ الوهلة الأولى، وقد تتعرّض لأذى على أيدي الجنود، وحينما سمعت زوجها يقول بهمس مسموع: قدّيش لها هيبة القدس! انتعش مزاجها وغالبت مخاوفها واطمأنّت وقالت بعذوبة تركت أثرها في نفسه: والله انك صادق يا شيخ.

لم يضف الشيخ إلى كلامه أيّ كلام، ومهيرة أيضًا لم تقل أيّ كلام. اكتفت بأن

تمنّت في سرّها الخير لها ولزوجها ولكلّ أبناء العائلة والعشيرة الذين مشوا بصمت في السوق، واتجهوا إلى المسجد الأقصى، وكانت ساحاته غاصّة بجموع المصلّين من الرجال والنساء. اختاروا لهم مكانًا بين الجموع وصلّوا، وحمدوا الله لأنه وهبهم نعمة الصلاة في القدس.

بعد الصلاة، انتشروا في أسواق المدينة. أكلوا وشربوا وتكلّموا كثيرًا بعد أن انقشعت الرهبة من نفوسهم على نحو ما. مهيرة كانت مستمتعة إلى أبعد حدّ وعيناها تتملّيان البشر والأماكن والأدراج والأسواق والحوانيت. أكلت وشربت وتكلّمت وراقبت الشيخ بمودّة وحنان، وهو يأكل ويشرب ويتكلّم بصوت مسموع. ولم يبخل عليها الشيخ بتاتًا، لبّى كلّ رغباتها، وهي رغبات بسيطة على أية حال: اشترت حلوى من بائع حلويات في باب خان الزيت يضع طربوشًا أحمر على رأسه، وقماشًا ملوّنًا من بائع كهل في حارة النصارى يضع نظارّات طبّيّة على عينيه، وصحونًا وملاعق وسكاكين وكؤوسًا مختلفة الأحجام من بائع في طريق الواد يضع طاقية صغيرة سوداء على رأسه، وعادت إلى البرّيّة وفي نفسها شغف بالمدينة لا ينتهي.

***

ولم تكن هذه هي حالة صبحاء التي لطالما أبدت عدم ارتياحها من مهيرة كلما تحدّثت عن ضيقها من العيش في البرّيّة. تقول لها: انت شو بيعرّفك في البرية؟ انت من بنات امبارح. فلا تدخل مهيرة مع ضرّتها السابقة في نقاش احترامًا لعمرها ولعلاقتها المديدة بالبرّيّة، مع أنّها هي الأخرى لم تعد امرأة شابة بعد كلّ هذه السنوات، وبعد أن تقلّب عليها ثلاثة أزواج. وهي تدرك أنّ صبحاء تحبّ البرّيّة ولا تستطيع ممارسة حياتها بعيدًا منها، كالشجرة التي نبتت في مكان ثم نمت وكبرت، فإن انتُزعتْ من مكانها لتُزرعَ في مكان آخر فإنّها قد تموت. وصبحاء ليست مقتنعة حتى الآن بالأسباب التي تجعل ابنها راغبًا في الرحيل. صحيح أنّ القحط يصيب البرية بين سنة وأخرى، فيزداد شقاء ساكنيها، وصحيح أنّ العيش فيها أصبح أكثر قسوة، لكنّ الإقامة فيها تظلّ أقلَّ خطرًا من السكن على مشارف المدينة. ففي البرّيّة

لم يتمكّن الأتراك من التحكّم في العشيرة، وفيها لا يأتي عسكر الانكليز كلّ يوم إلى مضارب العشيرة، ولا يأتي المهاجرون اليهود.

وهي تعي أنّ ابنها لا يريد فرض الرحيل عليها بالإكراه، حاول مرارًا وما زال يحاول إقناعها بالحسنى بضرورة الرحيل. يشرح موقفه من عسكر الانكليز ويقول: خطرهم واقع يا أمّي على البرية وعلى مشارف المدينة. وأرضنا هناك إن لم نُقم عليها فقد يطمع فيها المهاجرون اليهود ويستولون عليها. والأمّ تصمت ولا تستمرّ في مجادلته، تقول وهي تستذكر زوجها في محاولة لعدم الاستمرار في الجدال: الله يرحم روحك يا شيخ محمد.

تسمعها مهيرة وهي تترّحم على روح الشيخ. تترّحم هي الأخرى عليه، وتتذكّر ذلك الصباح حينما غادرها إلى بلاد الحجاز، كان ذلك كأنّه يحدث يوم أمس مع أنّ سنوات كثيرة مرّت منذ ذلك الصباح. بكت مهيرة وهي ترى القافلة تغادر مضارب العشيرة، وغنّت مع نساء العائلة في توديع الحجاج:

وبحَفَظ الله يا حجاج بيت الله بحفظ الله
تروحوا وترجعوا لنا بالسلامة وبحَفَظ الله

غنّت معهن أيضًا:

يا رايحين القبر ويش وصفة حجاره
سعيد من راح قبر النبي وزاره

وقالت لهن بعد أن توقّفت عن الغناء: ما أصعبَك يا يوم الفراق!

غير أنها شعرت بالعزاء لأنّها حبلى بطفل الشيخ وطفلها الذي سيكبر في بطنها أثناء غياب أبيه. وآنذاك، بكت حليمة كي لا تترك الميدان خاليًا لمهيرة وحدها، ولأنّها توقّعت أن يصطحبها الشيخ معه لأداء فريضة الحج. الشيخ لم يفكّر في ذلك، وحينما فاتحته حليمة بالأمر صدّها ولم يدخل معها في نقاش، لأنّ لديها أطفالاً من واجبها الاعتناء بهم. حليمة قالت: يمكن لمهيرة أن تعتني بهم، والشيخ لم يصغ إلى

كلامها. قال إنه لا يحبّذ ذهابها معه. اصطحب زوجته الأولى أمّ عبد الله، احترامًا لعمرها الذي يؤهّلها للذهاب إلى الحج، ولأنها ثكلت بولدين قتلا في الحرب، ولم يعد لديها أطفال صغار.

بدت صبحاء مرتاحة لقرار الشيخ، لأنّ أوقاتاً صعبة مرّت عليها بعد زواجه المتكرّر من ستّ نساء (ماتت واحدة وطلّق اثنتين)، مهيرة هي الأخيرة بينهن. كان الشيخ ينقطع عن زيارتها، فتبدو مهجورة ليس لها شأن بين الزوجات. تتبرّم وتثير مشكلات للشيخ ولنسائه الأخريات، تضطرب أحوال العائلة وتتسرّب أخبارها إلى بقية عائلات العشيرة. يستاء الشيخ ويهمّ بمعاقبة صبحاء، يقترب منها متوعّدًا مهدّدًا، وحينما يلاحظ أنّها غير مكترثة لتهديده ووعيده، يتراجع، ولا يلبث أن يصل إلى تسوية معها. يخلع نعليه ويجلس في بيتها، فتهشّ وتبشّ له، تضع المساند المحشوّة بالصوف خلف ظهره وتضع المخدّات عند رأس الفرشة لكي يتكئ عليها ويرتاح. تغلي القهوة وتقدّمها له، ثم تطبخ اللحم على نار الحطب لكي يأكل هنيئًا مريئًا، ويظلّ عندها تلك الليلة ولا يغادرها إلا في الصباح عائدًا إلى بيت واحدة من زوجاته الأخريات. يغيب عنها أسابيع ولا يعود إليها إلا حينما يقع شجار جديد تثيره صبحاء (أثناء ذلك، لا ينقطع عنها ابنها عبد الله، فهو يعي كم هي محبّة للسمر ولسرد الأخبار وللتعليق على فضائح النساء. تسرد ما تشاء من حكايات: حديدون اللي ما حدا بيقدر يقبض عليه، عواد والغولة اللي ضحكت على عقله وقالت له أنا أختك وصدّقها وما سمع من مرته. مرته واولاده هربوا والغولة هجمت على عوّاد وأكلته، والبنت المزيونة اللي ما كانت زوجة أبيها تحبها وتآمرت عليها، بس ربنا وقف معها وحماها، وجبينة اللي خطفها الغول وحبسها في قصره لولا حبيبها اللي أجا وقتل الغول بضربة واحدة من سيفه، الغول قال له: ثنّ، ثنّ. الحبيب قال له: ما علمتني امّي (لأن الضربة الثانية تحييه). حكايات عديدة ترويها صبحاء لابنها، وأخبار تتجدّد كلّ صباح وكلّ مساء، وحينما ينتهي ما لديها من أخبار لتلك الليلة تصمت ولا يتبقّى لديها سوى السخرية من بعض الأشخاص، فلا تذكر أسماءهم إلا محرّفة أو مجزوءة، فإذا ذكرت اسم حمّاد فإنها تلفظه: خَمّاد.

يقول لها عبد الله: يا أمي، اسمه حَمّاد.

تردّ عليه وهي مصرّة على موقفها: لأ، خَمّاد. خمّاد هذا شخص دجّال.

يسكت ولا يستمرّ في مجادلة أمه، وهي تواصل تحريفها لأسماء من لا ترضى عنهم من الرجال والنساء، أو ابتداع ألقاب لهم ولهن. وفي بعض الأحيان، تبدأ الحديث عن أيّ شخص قبل أن تذكر اسمه، لكي تستدرج من يستمع إليها للاستفسار عن الشخص المقصود، فتقول: الله يقصّر عمره.

يسألها عبد الله: من هو يا أمي؟

تقول: أبو رقاب (المقصود هو أبو عقاب، الذي اشترى عشرين عنزة من زوجها ولم يسدّد إلا نصف ثمنها).

وتقول: الله يجعل مثواها النار.

– من هي؟

– حبيطة (المقصودة هي حفيظة التي لم تبارك لها بالحفيد الجديد).

ولا يندر أن تخرج صبحاء عن منهجها هذا في الكلام. تتذكّر ولديها عبد الله الكبير وعبد الله الصغير، تسترسل في الحديث عنهما، وتذكر ما كانا يتمتّعان به من خصال. لا يندر أيضًا أن تبدأ الكلام من لحظة محدّدة ثم تواصل إشباع هذه اللحظة وهي متلذّذة بما تقول، ما يدفعها إلى سرد الحكاية الواحدة أو الخبر الواحد مرّات ومرّات، وابنها عبد الله يصغي ويواصل الإصغاء).

ركب الشيخ محمّد جملاً بلون الصحراء، وركبت صبحاء جملاً سار قريبًا من جمل الشيخ. ومن خلفهما سار عدد من نساء العشيرة ورجالها وهم يركبون الجمال التي حمّلوها بما يحتاجونه أثناء مسيرة طويلة إلى الجنوب.

صعد عبد الله قمّة جبل قريب من المضارب، وتبعه عدد كبير من رجال العشيرة ونسائها وأطفالها، ومعهم علي أوغلو. نظروا بعيون حزينة صوب القافلة التي تنتظرها مصاعب جَمّة على طريق ليست آمنة في أغلب الأحوال، فإذا نجا الشيخ ورفاقه من خطر الوحوش، فقد لا ينجون من غارات قطّاع الطرق، وإذا استطاعوا مغالبة هؤلاء، فقد لا يستطيعون مغالبة تقلّبات الطبيعة، أو الثبات أمام وطأة الأمراض.

شيّع عبد الله والده ووالدته والجمع الموغل في النأي عن مضارب العشيرة، وهو يشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه منذ الآن، باعتباره أكبر أبناء الشيخ، والوريث الشرعي لزعامة العشيرة بعد أبيه. قال بصوت مشوب بالأسى: الله يسهّل طريقهم.

ردّدت من بعده أصوات: آمين يا رب العالمين.

تلفّت الشيخ محمّد لآخر مرّة خلفه قبل أن تغيّبه الطريق عن المضارب. شعر بمرارة الفراق منذ اللحظات الأولى لمغادرته زوجاته وأبناءه وأقاربه، مع أنّ وجود صبحاء معه يعزّيه وينسيه بعض همومه التي تزايدت بعد مقتل والده. لو أنّ والده لم يُقتل وهو بعدُ كهل له هيبته، لما تجشّمَ ابنه كلّ هذا العناء، ولما تصدّى للأعباء وللمخاطر دفاعاً عن العشيرة، في سنٍّ مبكّرة.

بينما كان الشيخ عبد الله يركب فرسه ويقترب من بئر الماء، على مبعدة أميال من مضارب عشيرته، برز له عدد من فرسان عشيرة الفرارجة واشتبكوا معه وأردوه قتيلاً ثم لاذوا بالفرار. كان العداء مستحكمًا بين العشيرتين بسبب المراعي وموارد المياه. سقط الشيخ صريعًا، وظلّت فرسه تحمحم بالقرب من جثّته، وحينما اشتمّت رائحة دمه المتخثّر، راحت تشبّ رافعة قائمتيها الأماميّتين إلى أعلى، كأنّها تطلب النجدة. وحينما لم يصل أحد، انطلقت تعدو مثيرة النقع خلفها، ولم تتوقّف إلا أمام مضارب العشيرة. أبصر محمّد فرس أبيه تعود من دونه، فأدرك أنّ أمرًا فادحًا وقع، وأنّ حياته دخلت منعطفًا جديدًا منذ هذه اللحظة. استصرخ أبناء العشيرة: وين راح النشامى؟

جاءته أصواتهم من كلّ الجهات: ابشر، إحنا معك.

هبّوا يبحثون عن الشيخ. خَمّنوا من هم القتلة، فقرّروا الإغارة على عشيرة الفرارْجة، ووقعت مصادمات تكبّدت فيها عشيرة الشيخ القتيل خسائر أخرى.

كان محمّد يعلم، وهو يقود أبناء عشيرته، أن لا طاقة له على إلحاق الهزيمة بقتلة أبيه. تصدّعت همّة العشيرة أمام وطأة الخصوم، وكادت ترفع رايات الذلّ والاستكانة، لولا أن هبّت عشائر من عرب السواحرة وهي: الشقيرات والجعافرة والسراوْخة، مدفوعة بالرغبة في حقن الدماء، فأخذت عطوةَ دمٍ بين العشيرتين

المتقاتلتين، ثم أعقب ذلك صلح أسفر عن اتفاق على صيغة تنظّم حقوقهما بالتساوي في المراعي وموارد المياه.

رغم هذا الصلح، ظلّ الشيخ محمّد بعد أن ورث الزعامة، يعتقد أنّ دماء أبيه الذي كان مختار العشيرة ذهبت هدرًا، وبات يؤرّقه الإحساس بضعف عشيرته أمام العشائر الأخرى، فقرّر الإكثار من الزوجات، لاستيلادهن أعداداً كبيرة من الأولاد. بكّرت زوجاته بحمل البنات، وظلّ نسله من البنات في ازدياد إلى أن جاءه عبد الله الأول، فقرّت به عيناه، ثم جاءه عبد الله الثاني وبعده عبد الله الثالث الذي بقي على قيد الحياة بعد أن حصدت حروب السلطنة أخويه، ولهذا ظلّ يتحسّب من دخول المخاطر، فكان موقفه الذي اتخذه أثناء استنجاد الضابط التركي. تذكّر علي أوغلو، وأيقن أنّ خذلانه للضابط هو الذي دعاه إلى منح الجندي الهارب من الجيش إقامة في مضارب العشيرة.

وحينما قتل الشيخ عند بئر الماء شقّت مهيوبة ثوبها عن صدرها. هالة مريعة نشرها الموت على الصدر والوجه والقوام. نثرت شعرها حتى غطّى وجهها وكتفيها، ونعفت التراب على رأسها. لطمت وجهها وحفرت خطوطًا دامية بأظافرها على خدّيها. بكته نساء العشيرة ولطمن خدودهن حزنًا عليه ورثينه بأصوات ملتاعة:

يا نايحه نوحي عليه نوحي
عبد الله امّدّد على اللوحِ
زقزقْ يا عصفور وازعقْ يا غرابِ
الشيخ فارَقنا وعيشتنا بعده خرابِ

ولم يفارقها الحزن. كانت تزور قبره كلّ صباح، تحدّثه عن أحوالها، تستذكر أيّامها معه، وهي على يقين من أنّه يسمع كلامها، تحدّثه عن أخبار العشيرة وتسرد عليه كلّ شيء بالتفصيل، ثم تصمت وهي تجفّف دموعها، وتطلق تمتمات خافتة: يا حسرتي عليك يا عبد الله.

كانت أنوثتها في تمام نضجها حينما رحل عنها الشيخ، وهي الأكثر تألّقًا بين

بنات جيلها. كانت عفيّة الجسد، جميلة، قليلة الكلام، حازمة في مواقفها. تقدّم لها، منذ بلغت الرابعة عشرة، خطّاب من أبناء عشيرتها ومن عشائر أخرى، ولم تقبل أيًّا منهم. ظلّت مصرّة على أنها لن تتزوّج إلا من رجل فارس مقدام، وكان الشيخ عبد الله هو الرجل. منذ أن رأته عند بئر الماء اندلعت في قلبها رغبة جامحة، وقالت لنفسها: هذا هو . وتزوّجته.

استمرّ حدادها عليه سبعة أعوام، رفضت خلالها الخطّاب الذين جاءوا إلى أبيها. لبست السواد وظلّت ممتنعة عن ممارسة الفرح، لا تذهب إلى الأعراس، ولا تحتفل بحلول الأعياد، ولا تبارك لامرأة بمولود. أخيرًا، تزوّجت رجلاً من عشيرة زوجها وأنجبت منه ولدين. التحق الأصغر منهما بثورة ٣٦ ، وكانت له مواقف مشهودة تحدّث عنها الناس طويلاً. وكانوا ينسبون شجاعته إلى شخصية أمّه المتفرّدة، فيعلّقون على ذلك قائلين باعتزاز: هذا مهيوب بن مهيوبة.

وهي ما زالت تذكر كم كانت معتدّة بجمالها! ما يضفي على هذا الجمال رصانة وبهاء. رآها الشيخ عبد الله وهو يقترب من بئر الماء لكي يسقي فرسه. كانت تملأ الماء في قربتها ومعها بنات أخريات. طرح عليهن السلام ورددن عليه السلام، وملأت مهيوبة الدلو ودلقت الماء في الحوض، وفي الأثناء، تأمّلت بنظرة خاطفة وجه الشيخ وشعرت بانجذاب إليه. تأمّل الشيخ جمالها وأعجب بها وهي تنشل الماء من البئر وتدلقه في الحوض. قال معلّقًا لتخطّي عتبة الصمت: الفرس عطشانة.

ابتسمت وقالت: خلّها تشرب.

راقته رنّة صوتها. سألها: من أي عشيرة أنت؟

قالت بخفر وحياء: من عشيرة الرماضنة.

قال: أنا أعرف زعل أبو رمضان.

قالت: هو أبي.

في المساء، حلّ الشيخ ومعه عدد من رجال عشيرته ضيوفًا على الرماضنة، وحينما قُدّمت له ولمن معه القهوة امتنعوا عن شربها إلى أن يلبي زعل أبو رمضان طلبهم.

وعدهم بأن يلبّي طلبهم إن كان بمقدوره تلبيته، طلب الشيخ عبد الله يد مهيوبة (خالف العادات المرعيّة وجاء بنفسه تعبيرًا عن اللهفة ونفاد الصبر). فاستجاب زعل أبو رمضان لطلبه، لأنّ مصاهرة الشيخ عبد الله شرفٌ له ولعشيرته. مهيوبة حمدت الله في السرّ وفي العلن لأنها صادفت الشيخ عند البئر، فعرفها وجاء يخطبها في الحال.

خرجت في يوم عرسها من بيت أبيها وهي متلفّعة بعباءته المقصّبة، وكان يمشي إلى جوارها ويقودها من يدها والنساء يغنّين من حولها:

قومي اطلعي قومي اطلعي لحالك
واحنا دفعنا حقوق أبوك وخالك

ساعدها في الركوب على ظهر جمل. مشى الجمل، ومن أمامها راح الرجال يغنّون، والنساء من خلفها يغنّين، والبنات اللواتي لم يتزوّجن بعد، كنّ يرتدين أجمل ملابسهنّ ويغنين، وهنّ ينظرن نحوها، يغبطنها ويتمنّين اليوم الذي يركبن فيه الجمل، مثلما تفعل هي الآن.

مرّت الفاردة بمضارب عدد من العشائر، استضافت أولاها العروس ومن معها، وأولمت لها وليمة تدلّل على كرم غير منقوص، وقدّمت لها بقيّة العشائر التي لم تظفر باستضافتها مبالغ من مال، وانتهى بها المطاف في مضارب عريسها معزّزة مكرّمة، في كنف زوجها الشيخ، إلا أنّه قتل بعد عشرين سنة، فلم تهنأ بالعيش معه وقتًا أطول. كانت تشتهي أن تعيش معه مئة عام.

وما زالت تذكر كيف تغيّرت طباع الفرس بعد مصرعه. ظلّت تقف في مربطها أيّامًا وهي ساهمة واجمة، تحدّق ببلادة نحو الأفق، كأنها تحاول أن تستذكر ما حدث للشيخ. بعد ذلك، أخذت تحمحم وتخبط الأرض بقوائمها.

وذات مساء، قطعت مرس الكتّان، وانطلقت تعدو عبر المضارب مبتعدة إلى حيث قبر سيّدها. وقفت تحفر ترابه بحافرها، ثم لم تلبث أن رفعت رأسها إلى السماء، كأنها تستغيث بقوّة مجهولة لإنقاذ الشيخ مما حلّ به. وبعد أن اعتراها اليأس، عادت

إلى مضارب العشيرة مطأطئة الرأس، لتراقبها النسوة متأسّيات، يسارعن إلى ربطها، يقدّمن لها التبن والشعير. تقف مهيوبة بالقرب منها، تمسّد رقبتها وتقبّل عينيها، وتتأمّل جسدها. تغمر الفرس رأسها في عليقة الشعير، ثم ترفعه في عصبية، وتمعن في الصهيل الذي يستمرّ إلى ساعات الليل المتأخرة.

مرّت على الفرس فترة هدوء، وبدا أنها نسيت كلّ شيء، فلم تعد النسوة يسمعن صهيلها إلا في أوقات متباعدة. ولم تستمرّ على هذه الحال، قطعت المرس ذات ليلة، وانطلقت تعدو. وفي الصباح افتقدتها العشيرة. بحث الرجال عنها في الفيافي والقفار، سألوا عنها العشائر الأخرى، ولم يعثروا لها على أثر. استمرّ بحثهم سبعة أسابيع، اعتقدوا أنها ماتت، فتأسّوا عليها. وبكتها مهيوبة.

فصل من رواية بالعنوان نفسه قيد النشر.